حلزون

لا تحلموا بعالمٍ سعيد..

أَمَل دُقُّل

كلمات سبارتاكوس الأخيرة

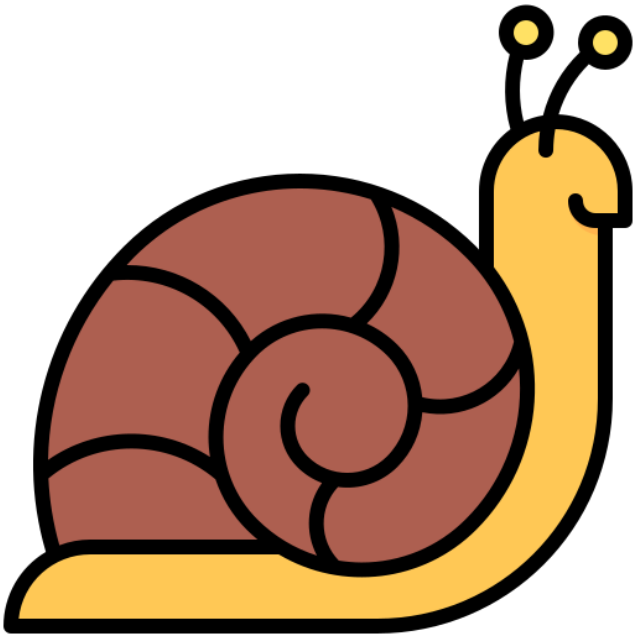

أحمد شلبي

ماينوث، ايرلندا

٢٠٢٥\٠٥\٣١

حلزون

لا تحلموا بعالمٍ سعيد..

أَمَل دُقُّل

كلمات سبارتاكوس الأخيرة

يبدو أنني قد فقدت أخيرًا قدرتي على النوم. أعلم أنني أعاني من التوتر والأرق الشديدين منذ عدة سنوات، لكنني على الأقل كنت قادرًا على اقتناص ساعتين او ثلاث من النوم السيء كل يوم. أما الآن ومع ما يحدث هناك في ذلك الجانب من هذا العالم البائس، المضيء ليلًا تحت صفرة القنابل، الرطب الى حد الغرق بدماء الابرياء، فإن تلك الشعرة الأخيرة المتهالكة التي كانت تربطني بعالم الاحلام قد قُطعت تمامًا. أعرف جيدًا من مزق تلك الشعرة. شعرة هي الأُخرى من مزقتها، لكنها شعرة حادة كانت قادرة على تمزيق كل شيء.

بالأمس شاهدت فيديو، لم يتجاوز ثوانٍ، لأب يحمل بين يديه طفلته التي قتلها القصف الإسرائيلي في غزة لتوّه، وما اكثر توّاته اذا صح قول ذلك عن ذاك الوضيع. يحملها بينما تداعب أصابعه التي شاخت من الحزن ضفائر شعرها المقدس في صمت. يبدو انه اعتاد ان يداعب ضفائرها الجميلة كل ليلة، يقبلها على خدها الوردي الناعم، يضمها برفق بين ذراعيه بينما يقص لها قصتها التي يعلم انها تحب أن تسمعها قبل أن تقبّله ضاحكةً لتخلد الى النوم. لكنه الآن وخلودها الأبدي قد حان، لابد له أن يقص لها قصتها.. ولو مرة.

كانت مجرد ثوانٍ قليلة، لكن فقدت معها أمور عديدة معانيها السخيفة فجأة: ضجر يملأ وجوه الجموع على رصيف محطة قطار، كل هذا الضجر لأن القطار سيتأخر فقط عن موعده عشر دقائق. شعوري بالضيق الشديد من حبوب الشباب التي مازالت تصر على مهاجمتي حتى بعد بلوغي الثلاثين. شكوى احدى زميلاتي المتكررة عن صعوبة حجز ميعاد لطلاء الاظافر.

حوار بليد الى حد الضجر بين نباتي ونباتية من بلاد العم ترمب - ولا اقصد هنا التعميم بالطبع - عن مدى افضلية اختياراتهما في الحياة، عن تعاطفهم الشديد مع حقوق المعيز والبقر، وعن عظمة تأثيرهم على مستقبل هذا الكوكب المنكوب.

يجلسان في مطعم فاخر يتغنون شعرًا في روعة مذاق الوجبة النباتية التي يأكلونها، لكنها في واقع الأمر وجبة سريعة التحضير بلاستيكية الطعم تثير القيء، تم استيراد كل حبة بازلاء وشريحة بصل وقطعة طماطم فيها من بلاد لا يعلمون عنها شيئًا. لا يعلمون ان الفلاحين فيها ما هم الا عبيد، بل أدنى من العبيد، اقصى طموحاتهم ان يُعاملون هم وابنائهم فقط كالبهائم، وأن يتحصلوا على نصف ثمن تلك الوجبة السيئة الطعم أجرًا لعملهم الشاق لأسابيع بل ربما شهور.

موعد غرامي أول وبالتأكيد الأخير مع فتاة بيضاء تبدو جميلة، تنهال عليّ بوابل من الأسئلة التي تشبه في سطحيتها رخامة مطبخي، في تقرير موجز وسريع عن اهتمامات وهوايات شخص تافه مثلي.

بدا استجوابها ميتًا ميكانيكيًا للغاية من فرط ما كررته في محاولة بائسة منها لفلترة قائمتها الطويلة من الشباب التي قررت ان تواعدهم؛ لتترك القلة القليلة الباقية من الرجال اللائي يستحقون وقت مواعدتها الثمين، في رحلتها الأكثر بؤسًا للبحث عن ذلك الواحد المزعوم الذي يلقبونه - ولا أعلم لماذا - بـ The One.

اقنعتها ثقافتها الغارقة في الفردية - حيث الكل قابل للاستبدال ولا يدين احد لاحد بأي شيء - بأنه فور ظهور ذلك الواحد (The One) ستُحل كل مشكلات حياتها في لمح البصر. لكن ويا للمفارقة، ستنزل في نهاية المطاف من عرش كبريائها الكاذب وسترضى في النهاية بأي واحد (Anyone) - حرفيًا أي واحد (Anyone) - عندما تتمزق روحها ويدهسها قطار لعبة سوق النخاسة في ثوبه الرقمي البراق الجديد، وتدرك أخيرًا ان مبادئ الفيزياء لازالت تسيطر على الكون، وان موازين القوة لازالت تسيطر على هذا الكوكب البائس، وان الحقائق البيولوجية والرغبة في بناء كيان أُسري هادئ لازالت تهيمن على عقول الكثير من الرجال الجادين، مهما تشدقت افواه المثاليين بعكس ذلك، افواههم فقط لا شيء آخر!

كل هذه الأمور كانت تشعرني سابقًا بالضيق، بالضيق الشديد أحيانًا. أما الآن فهي تثير القيء، فقدت معناها تمامًا. احتاج لمجهود الجبابرة لإدخالها مرة أخرى برأسي والتعامل معها على انها شيء. انها مجرد هراء، هراء صغير، وصفها بالهراء الكبير سيكسبها أهمية لا تستحقها.

لم استيقظ، فأنا لم انم كي استيقظ. فقط جلست في سريري انظر الى السماء الملبدة بغيوم الشتاء من شباك غرفتي التي تقبع ببيت هادئ بإحدى قرى ايرلندا. قمت من سريري، ارتديت ملابسي وحملت حقيبة ظهري وذهبت الى مكتبي بالجامعة. كانت العاشرة صباح الاثنين، حيث الاجتماع الاسبوعي لمجموعتنا البحثية مع مشرفي للدكتوراة. يرتكز نشاط المجموعة البحثي حول الحمض النووي.

دخلت غرفة الاجتماعات، وجدت الجميع مصطفين كل على كرسيه حول طاولة الغرفة المستطيلة. وقف احد الباحثين يعرض اخر تحديثات مشروعه البحثي، عرض امامنا من حاسوبه برنامج محاكاة لشرائط الحمض النووي وهي تتفاعل بسرعة مع بعضها البعض. أبطأ قليلًا من سرعة المحاكاة فبدت الشرائط لي رفيعة تنحني في انسياب وهي تتشابك، لكنني لم ابصر امامي سوى ضفائر شعر ذلك الملاك.

شعرت حينها بلا جدوى طاغية كادت تسحقني. ما جدوى كل ذلك العبث الذي يدور من حولي؟ لماذا أنا هنا في هذه البلاد الجافة على امطارها؟ وما الذي حقًا افعله بحياتي؟ سأنفجر ان جلست في تلك الغرفة اكثر من ذلك. استأذنت للذهاب الى دورة المياه، لكنني غادرت المبني بأكمله.

قررت القيام بتمشية قصيرة بالحرم الجامعي القديم، أُحب مبانيه الاثرية واشجاره العملاقة، عادةً ما أقوم بذلك كلما اشعر بالملل. نعم انه الملل، لم أكن اعلم الكثير عنه في بلادنا قبل السفر، أما هنا فسيكون الملل جليس روحك المقيت الذي يتسرب إلي اعماقك ويحل متى أراد رغمًا عن أنفك مهما حاولت.

بدأت جولتي المعتادة بالمشي في الفناء الخلفي لحرم الجامعة. في العادة أكرر لفاتي حتى اشعر الملل! غريب هو الحال تأتي لتتخلص من الملل فتستبدله ليس الا بملل آخر، وكأن الملل حرباء تتلبس روحي، يتغير لونه لكنه باقٍ مهما فعلت.

كانت الامطار تتساقط من فوقي، تارةً تحجبها أوراق الأشجار وتارةً أُخرى تصفع وجهي ببرودتها. كنت أركل في ضجر أغصان الأشجار المكسورة التي تكسو الطريق امامي. مضت نصف ساعة، قررت بعدها العودة الى المنزل. أثناء عودتي كنت على وشك دهس حلزون ظنًا مني انه احد الأغصان. كان يسير كعادته ببطء شديد من أحد جانبي الطريق الى جانبه الاخر، لكنني تفاديت دهسه بأعجوبة.

وقفت متعجبًا انظر لذلك الحلزون وفكرت في ان اتحدث معه ولو قليلًا، فمن الواضح انه منسي ولم يهتم أحد بأمره منذ زمن بعيد. نزلت برأسي الى الأرض لأنظر اليه لكن لم تلتق عينانا؛ فقد كان صغيرًا جدًا مقارنة برأسي الضخم. قد يكون خائف مني أيضًا ومتقوقع داخل صدفته منتظرًا مني أن ادهسه في أي لحظة كما اعتادت بنو جلدته على ذلك. حاولت مرة أخرى دون جدوى، لكنني اقسمت أنني لن اعود الى البيت إن لم اتحدث مع ذلك الحلزون اليوم.

افترشت الأرض واضعًا يدي على خدي لا اعلم ماذا اصنع. نظرت الى الحلزون لدقائق في صمت، اقتربت منه ثم ربتت بهدوء على جسده الرخو وهمست اليه برفق قائلًا..

- لا بد ان اتحدث معك اليوم أيها الحلزون، اشعر بأنني عاجز للغاية وحزين من اعماقي. لديّ الكثير من الحديث الذي أود مشاركته معك، اعتقد على ما يبدو انك حزين أيضًا وتود الحديث معي.

مرت سيارة أمن الجامعة من جواري، كان يقودها **جاك** وعلى المقعد الاخر يجلس بجانبه رجل آخر يُدعى **أولا**. في الغالب تجمعني درجة من الصداقة الغير مفهوم أسبابها مع أفراد أمن الجامعة، اعتقد بأن رغبتي في معرفة أسمائهم ومعاملتهم كجاك وأولا وليسا كمجرد فردين أمن يرتديان سُتر فاقعة الصفرة لعبت دورًا في ذلك.

بدأت صداقتي بجاك بعداوة نسبية وتحولت تدريجيًا الى صداقة. لأول وهلة بدت ملامحه قاسية وطباعه جافة عندما كان يمر بالمكتب ليلًا يسألني عن موعد مغادرتي. لم اعرف قط سبب غلظته في السؤال، لكنني في احد المرات بعدما اقتحم عليّ المكتب بوقاحة دون استئذان، ابتسمت له وسألته عن اسمه فوجدته انقلب طفلًا لا أعلم لماذا.

أتذكر جيدًا عندما رآني اخر مرة، لوح اليّ بيده من بعيد، وعندما اقترب مني أخبرني بأنه عرفني من شعري لأنه يشبه شعر مطرب البوب الايرلندي الراحل فيل لينوت، اراني صورته فقلت له انه بالتأكيد يتوهم فلا أجد أي علاقة بين شعري وشعره، لكنه اصر على رأيه وأراني صورة تمثاله في دبلن.

أما **أولا** فلا يمكنك ان تقاوم ضحكته دون ان تحاول التعرف عليه، جاء من نيجيريا منذ عقدين هو واسرته التي اخبرني الكثير عنها. لازال قلبه في نيجيريا

بعد كل هذه السنين، كان ذلك جليًا في عينيه التي اكتسى بياضها الناصع بالحُمرة عندما تحدثنا اول مرة عند بوابة الجامعة الخلفية.

علي كل حال توقفت السيارة بجانبي ونزل كلًا من جاك وأولا ليروا ماذا هنالك. سألني جاك قائلًا..

- مرحبًا يا صديقي، لماذا تجلس على الأرض هكذا، هل كل شيء على ما يرام معك؟
- لا تقلق يا جاك، أريد فقط ان اتحدث الى ذلك الحلزون، لكن رأسي ضخم قليلًا وتعجز عن موازاة رأسه الصغير فلا استطيع الحديث معه.

نظرا ضاحكين الى بعضهما البعض. سألني أولا على استحياء قائلًا..

- هل أنت بخير يا رجل؟
- لا تقلق يا أولا، لم أُجن بعد.. اريد فقط ان اتحدث مع ذلك الحلزون الآن.

هل دهس الحلزون دون أدنى اهتمام صار امرًا طبيعيًا في هذا العالم، اما محاولة التحدث اليه والاطمئنان على احواله صارت ضربًا من الجنون!

انزلت حقيبة ظهري، كان بها مرجعان ثقيلان جدًا احدهما في الديناميكا الحرارية الكلاسيكية والآخر في نظرية التعقيد الحسابي. لا اعرف لماذا كنت احملهم على ظهري كل يوم، وهل انا حقًا مهتم بمعرفة تلك الأمور ام لا. على كل حال أعطيت احدهما لجاك والآخر لأولا وطلبت منهم قائلًا..

- خذا هذين الكتابين، اريد منكما ان تصفعاني بهما بكل ما اوتيتما من قوة على جانبي رأسي؛ لعله ينبعج قليلًا ويستطيع محاذاة ذلك الحلزون لأتمكن من التحدث اليه.

نظرا الى بعضهما البعض مرة اخرى متعجبين مما طلبت، سألني أولا قائلًا..

- يبدو انك لست بوعيك يا رجل.. هل انت تعي ما تطلب؟
- انا بوعيي دائمًا يا أولا.. وما أقوله أعنيه يا صديقي كما تعلم.

ترددا في البداية ولم يجرؤا على لمسي لكنني نهرتم بلطف قائلًا..

- هيا يا رجال لا تضيعا وقتي، لن اقف طوال اليوم هنا انتظر صفعاتكم.

صفعاني عدة مرات لكن لم ينوبني من صفعاتهم سوا صداع شديد وظل رأسي كبير كما هو. لا اعلم لماذا رأسي كبير هكذا رغم انني متأكد تمامًا من خوائه. كان من المنطقي تمامًا ان ينبعج ولو قليلًا، على الأقل من وجهة نظري ومن وجهة نظر أحد هذين الكتابين الثقيلين.

لم افقد الامل. طلبت منهم اعطائي دقيقة افكر فيها، فلابد من وجود طريقة ما. لم يعد الامر مضحكًا لهم كما كان، كانا مهتمين حقًا لأمري، اعتقد انني لم أُخطأ في بناء تلك الصداقات. نظرت الى سيارتهم لبرهة، خطرت بذهني فكرة ما، اخبرتهم قائلًا..

- وجدت الحل يا اصدقائي. سأنام على الأرض هنا امام الحلزون مباشرةً وستقودا انتما السيارة وتدهسا رأسي برفق؛ لعل رأسي تنبعج هذه المرة وأستطيع التحدث اليه.

لم يوافقا بكل تأكيد، لكنني أصريت، أصريت بشدة وتوسلت لهم بكل شيء، وفي الأخير وافقا.

اعذروني على الاطالة، فأنا لا أتذكر الكثير مما حدث. إن كل ما اتذكره - قبل ان تتناثر أشلاء مخي وتلوث تلك اللوحة الفنية الخلابة لفناء الجامعة بدماء عربية يبدو انه لم يعد لها قيمة على الاطلاق - هو انني أخيرًا عندما التقت عيناانا أنا والحلزون وجدته يبكي بشدة، يبكي دمًا، واعتقد بل اكاد أُجزم انه أراد ان يعانقني بقوة عندما باغته فجأة وقلت له..

مرحبًا.

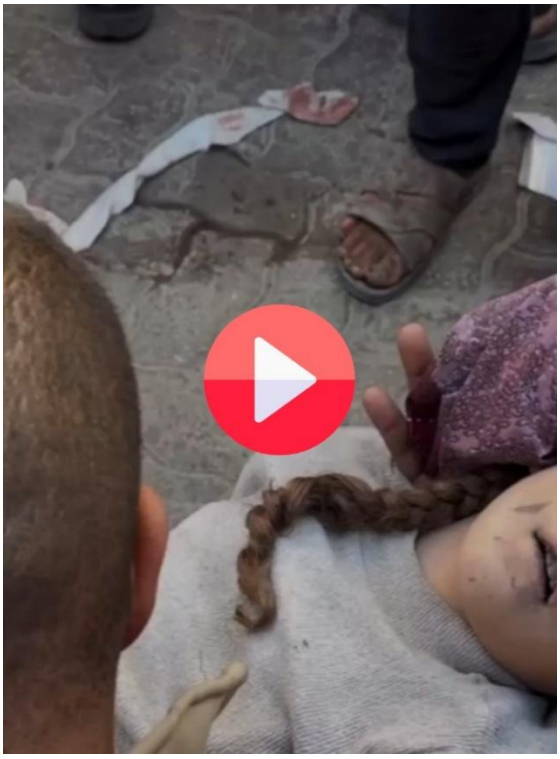

أم الجدايل